الفصل الأول

نظم الزواج فى العصور القديمة

- نظام الزواج عند اليونانيين القدماء .
- نظام الزواج عند الرومان .
- نظام الزواج عند قدماء المصريين .
- الأسرة العبرية .

obeikandl.com

obeikandl.com

• نظام الزواج عند اليونانيين القدماء:

كانت إجراءات الزواج تنظم بشكل دقيق، بحيث تشمل جميع الخطوات اللازمة منذ الخطوبة حتى يوم الزفاف..

وكان يُقام حفل الزواج عادة فى بيت والد العروس، وكان الوالد فى ذلك اليوم يحمل فى يده قدحاً كبيرًا مترعًا بالخمر، ثم يناوله إلى زوج ابنته ليشرب منها محيياً إياه هذا التحالف الجديد.

وكانت العروس تقص خصلة من شعرها، وقطعة من زنَّارها، دلالة على أنها سوف تترك حداثتها وتهب عذرتها.

وفى وليمة العرس كانت النساء يتناولن الطعام مع الرجال فى غرفة واحدة، ولكن كل جنس يجلس إلى مائدة خاصة به.

وتستحم العروس بعد هذه الوليمة بمياه نهر أو نبع من الينابيع بُجْلَب لها خصيصاً لهذا الغرض، ضماناً لطهارته وصفائه، وإذا كان النهر قريبًا ذهبت العروس بنفسها لتستحم فيه. وتزين الفتاة شعرها ـ بعد الانتهاء من شعيرة الاستحمام ـ بالسنبل البرى، وتتركه يتدلى حول رأسها وفوق جبينها.

وفى أثناء ذلك تنشد الفتيات أناشيد مختلفة[1] يمجدن فيها العروس

---

(١) من ذلك ما تنشده الفتيات:
إنها تتفتح مثلما تتفتح الزهرة.. =

والعريس . . . . . ويبنى الزوج بزوجه إبان حفل الزواج. فعندما يأتى مساء ذلك اليوم يحمل الزوج بين يديه القويتين عروسه التى تقاومه مقاومة وديعة، حيث العربة التى تكون قد أعدت لهذا الغرض، وفى إثره رهط من أصدقائه المقربين . . . . وفى أثناء الطريق إلى المنزل الجديد تجلس الزوجة بين عريسها وأصحابه.

ويسير وراء العربة جمع من المهرجين يحملون المشاعل فى أيديهم، ويتغنون أغانى «هيمين» إلـه الزواج عند اليونانيين. . . وتقوم زمرة من الفتيات عند بيت العريس بمحاولة صورية يحاولن فيها إنقاذ العروس من قبضة عريسها، ولكن أصحاب العريس يتصدون لهن، ويقع بين الفريقين عراك لطيف بهيج تتقهقر فيه الفتيات، وهن يحتججن بأصواتهن الناعمة. . . وتدخل العروس بعد ذلك غرفة العُرْسِ، وتغلق وراءها الباب بعنف؛ دلالة على أنها خلفت وراءها كل سبل الحياة الأخرى. . . . . وبعد قليل يدركها العريس ويندس بلباقة إلى جانبها فى فراش الزوجية.

. . . وفى صبيحة ليلة الزفاف يعود الرجل إلى عمله، أما العروس فتبدأ حياتها بين جدران بيتها كسيدة لهذا البيت.

وجرت العادة عند قدماء اليونانيين ألاَّ تأكل الزوجة فى الغرفة التى يأكل فيها زوجها، ولا تظهر فى أى مكان عام. والزوج لا يكاد يجتمع بزوجته بعد ذلك إلا فى غرفة النوم عندما يرغب فى الاتصال بزوجته.

= فجمالها فى إشعاعه أشد بريقًا من الذهب.

إنها لا تشبه إلا «ڤينوس» ربة العشق والجمال.

أمَّا رنين صوتها فأعذب نغمًا من موسيقي القيثارة.

وكم من شخص أغرم بها، ولكن بدون طائل.

لقد ظلت طاهرة نقية، منيعة أمام كل المحاولات.

إن أحدًا من الكثيرين الذين رغبوا فى يدها

لا يستطيع أن يفخر بأنه قد مسها بيده حتى ولا بأطراف أصابعه.

ويقع على عاتق الزوجة تدبير شئون المنزل، والقيام على تربية الأبناء، وهى المسئولة عن تربية البنات حتى يتزوجن.

ومحرم على نساء الطبقة العليا ـ بحكم القانون ـ الجلوس إلى النوافذ، أو الخروج إلى الشارع غير محجبات، أو بدون صحبة أحد من الأهل أو الخدم. وكان لهن أماكن خاصة بهن فى المسارح بعيدة عن أماكن الرجال والمحظيات، وكن لا يحضرن عادة إلا لمشاهدة المآسى، أما المسرحيات الفكاهية فكانت تُعَدُّ من المشاهد التى لا يليق بكرائم السيدات التفرج عليها ومشاهدتها؛ لجنوح بعض ألفاظها إلى الإباحية، الأمر الذى يخدش حياءهن.

والزوج هو السيد الآمر؛ إذْ كان فى استطاعته أن يطلق زوجته عندما يريد ذلك، مثلما كان الوالد يستطيع بيع ابنته بيع العبيد لو هى فرطت فى عفتها، وهذا يدل على أن البكارة كانت لا تزال لها قيمة لدى المواطنين اليونان؛ فالوالد له أن يقتل ابنته، والزوج له أن يقتل زوجته إذا أمسك بها متلبسة بالزنى.

وجدير بالإشارة أن الطقوس التى كانت تتبع فى إتمام الزواج كانت تحمل الكثير من ملامح عادة الاغتصاب، والتى تبدو بوضوح فى الطريقة التى يتم بها زواج الفتى بالفتاة، حيث كانت توضع خطة يُحاط بها أهل العروس علمًا قبل أن يتم تنفيذها، وذلك على النحو التالى:

يقوم الرجل بالحصول بالقوة على فتاة بِكْرٍ، على شريطة ألاَّ تكون دون سن الزواج، وأن تكون خالية، أى ليست مخطوبة لشاب آخر... ويأتى بها إلى امرأة تقوم بحلق شعرها بالكامل، وتضع عليها ثوبَ رجل، ثم

تقودها إلى فراش من القش، وتتركها وحدها فى الظلام[1]، وعندئذ يتسلل العريس خفية، على ألاَّ يكون قد تعاطى خمرًا إلى حد السكر، ولا انغمس فى الملذات إلى حد الضعف والوهن، وبعد أن يتناول وجبة طيبة مع أصدقائه يقوم بحل مشد الفتاة ويحملها ويضعها على الفراش، ثم يعاشرها جنسيا، ويقضى معها وقتًا قصيرًا، يتركها بعده عائدًا إلى المكان الذى اعتاد أن ينام فيه مع أصدقائه.

وهكذا يظل يتردد على الفتاة كل ليلة ليضاجعها سراً، على أن يقضى يوماً مع أصدقائه، كما ينام معهم بقية الليل[2].

لقد كان الإغريق يُقدرون الزواج حق قدره، ويجعلونه فى مرتبة سامية مقدسة، برغم قبح تلك الطقوس، حيث كان الغرض الأساسى منه هو إنجاب الأبناء لضمان دوام بقاء الأسرة، وقيام الأبناء الذكور بمتابعة العبادة المنزلية.

ومن ثم كانت العزوبة فى نظرهم جريمة كبيرة لا تغتفر؛ لأنها جريمة ضد آلهة الأسرة، وكان هذا الشعور قوياً جداً فى «أثينا» بنوع خاص، لدرجة أنه قد سُنَّ قانون يقضى بأن يقوم قضاة المدينة باتخاذ ما يلزم من إجراء ليحول دون انقراض أية أسرة من الأسر.

وكان الزواج عبارة عن عقد خاص يهدف إلى تحقيق مصالح الأسرة الخاصة، التى تنشدها من ورائه؛ لذلك كان الآباء وحدهم هم الذين يتولون إبرام هذا العقد، وقلما كانوا يدخلون فى حسابهم رغبات الأبناء وأهواءهم.

---

(١) يلاحظ أن كل الخطوات التى كانت تتبع مع الفتاة تشبه تمامًا ما كان يتبع مع الأسيرات والسبايا، مثل حلق الشعر، ووضع الخاطف ثيابه على المرأة كدليل على ملكيته لها، وإلقائها على القش لتنام إلى أن يتم تدبير فراش لها.

(٢) اغتصاب الإناث فى المجتمعات القديمة والمعاصرة، دكتور أحمد على المجدوب (بتصرف).

ويمر احتفال الزواج عند الإغريق بثلاث مراحل:

الأولى: ما يتم فى بيت الزوجة، أى أمام موقد أبيها.

والثانية: انتقال الزوجة من بيت أبيها إلى بيت زوجها.

والثالثة: ما يتم عند موقد الزوج، فى بيته الخاص.

وقد جرت العادة فى ذلك العهد أن يتقدم الشاب طالب الزواج إلى والد الفتاة، ويفاوضه فى قيمة المهر، وكان يُقَدَّرُ عادة بعدد من الماشية، فإذا ما قدم الخاطب هذا القدر المتفق عليه إلى والد الفتاة فإنها تحمل إلى بيته بعد ذلك بقليل... وتُقام لهذه المناسبة بعض الطقوس الدينية البسيطة، ووليمة عرس.

ولم يكن المهر يُدفع فورًا فى كل الأحوال؛ إذ كثيرًا ما كان يدفع الزوج مهر زوجته على أقساط... وفى بعض الأحيان كان الزوج يحصل على زوجته مقابل بعض الخدمات الخاصة التى يؤديها إلى والد الزوجة.

وقد جرت العادة أن يفرد الأب لكل بنت من بناته مبلغًا من المال والمتاع بصفة نهائية؛ لأنها كانت محرومة من الإرث.

هذا، ولم يكن بصاحب عقد الخطوبة أية شعائر دينية خاصة؛ إذ كان يُعَدُّ فى جوهره عقدًا قانونيا صرفًا، لاصلة له بالدين.

وكان الإغريق يهتمون بحفلة العرس اهتماماً كبيراً، ويرون وجوب إقامة الحفل فى يوم ميمون الطالع، وليس أسعد من اليوم الذى يكتمل فيه نور القمر ويصبح بدرًا، وكان الشتاء هو أوفق فصل للزواج، كما قال فيلسوفهم أرسطو[1].

---

(١) السياسة: أرسطو.

وفى اليوم المحدد لحفلة العرس تقام عدة طقوس وشعائر معقدة تتمشى والعادات الجارية، ففى الصباح الباكر يستحم كل من العروس والعريس بمياه بعض الينابيع المقدسة يجلبه إلى البيت بعض أفراد الأسرة ـ كما ذكرنا آنفاً.

وعندما تشرق الشمس يلبس العريس حلة الزفاف، ويتوج رأسه بإكليل من الغار، ويذهب إلى بيت العروس حيث يجتمع الأهل والخلان الذين دُعُوا لشهود حفلة العرس.

وكان يقدم لكل ضيف عندما يدخل المنزل فطيرة مصنوعة من السمسم المطحون المعجون بالعسل[1]. وهذا يعد جزءاً أساسيا من حفلة العرس، ولا يصح التغاضى عنه أو إهماله. فإذا ما اكتمل عقد الحاضرين قام والد العروس بتقديم القرابين لآلهة الزواج.

وكانت تُبذل العناية الفائقة لاستخلاص مرارة الذبيحة بدون أن تختلط محتوياتها بلحم الذبيحة، حتى لا تدخل حياة الزوجين أية مرارة أو كرب كما كانوا يعتقدون! وما إن ينتهى الأب من تقديم القرابين للآلهة حتى يعلن للحاضرين أنه قد قبل تزويج ابنته من الشاب المتقدم للزواج منها، مع تلاوة بعض التراتيل والأناشيد المقدسة التى تتحرر بمقتضاها الزوجة من سلطان أبيها، ومن عبادة موقده الخاص.

وكان هذا الإعلان أمرًا لازماً، إذْ لا تستطيع الفتاة أن تذهب لعبادة موقد آخر ـ وهو موقد الزوج ـ إلا إذا فصلها أبوها مقدمًا من موقده. وبتلاوة هذه العبارات المقدسة لا تصبح العروس من الناحية القانونية فردًا فى أسرة أبيها، بل تدخل فى عداد أسرة زوجها، وتخضع منذ تلك اللحظة لسلطانه.

---

(١) هى الصورة الأصلية لكعكة العرس، أو ما يسمى بـ «التورتة» فى الزواج الحديث.

وتحمل الفتاة بعد ذلك إلى بيت زوجها فى موكب زفاف يتقدمه الزامرون وحاملو المشاعل، وعندما يصل الموكب إلى منزل الزوج تصطنع العروس التمنع عن دخول المنزل، فقد جرت العادة على ألاَّ تدخل العروس بيتها الجديد من تلقاء نفسها، بل كان على الزوج أن يمثل معها عملية الاختطاف، وأن تصرخ هى وتستغيث، ويتظاهر أهلها ومن فى صحبتها بالدفاع عنها. . . وأخيرًا بعد معركة صورية يرفعها زوجها بين يديه ويدخل بها إلى المنزل، مع عدم مس عتبة الدار بقدميه. وبعد أن تدخل العروس المنزل تقام الطقوس الأخيرة الخاصة بحفلة العرس، وهى طقوس بسيطة، إذ يتقدم العروسان نحو موقد الزوج وهما فى لباس العرس الأبيض، وهناك ينثرون على الزوجة ماء النثار، وتمس بيدها النار المقدسة، ثم تتلى الأدعية التى يقدمون بها الزوجة إلى آلهة موقدها وبيتها الجديد.

ومما هو جدير بالذكر أن الآباء كانوا هم الذين يقومون بجميع الخطوات التمهيدية الخاصة بزواج أبنائهم، كذلك كان الزوج ـ فى كثير من الأحيان ـ لا يرى زوجته إلا فى يوم الزفاف.

وكان مما يزيد الأمر تعقيدًا خجل الزوجة وعدم نُضْجِها عقليا وجسديا؛ لأن الفتاة أو المرأة بوجه عام فى أثينا[1] لم يكن لها من الثقافة وسعة الأفق ما يمكنها من مسايرة زوجها فى تفكيره وميوله ونزعاته، إلا أنها كانت رزينة يزينها الخفر والحياء، إذ كان يعلو وجهها حمرة الخجل لو اتفق ووقع بصر أحد الرجال عليها، وهى تطل من نافذة بيتها. . . على أن هذا الخفر والحياء لم يحل دون ظهور الفسق والفجور بين النساء اليونانيات، فكان اتصال النساء المتزوجات بعبيدهن اتصالاً مشينًا أمرًا معروفًا فى اليونان القديمة.

(١) هى البلد التى أنجبت سقراط، وأفلاطون، وأرسطو، وسفوكليس، وبركليز، وغيرهم من قادة الفكر والرأى فى العالم.

وكان الشاب فى أثينا ـ من ناحية أخرى ـ له مطلق الحرية فى ارتياد أماكن اللهو والفجور والاتصال بالغانيات من نساء «أثينا» وغيرها من المدن اليونانية؛ لذلك كان مطمح كل والد أن يزوج ابنه فى سن مبكرة حتى يحول بينه وبين هذه المفاسد.

وكان الشاب اليونانى يشعر ـ والحال على ما ذكرنا ـ أن والده يريد من تزويجه أن يحول بينه وبين الحياة الحرة الطليقة من كل قيد؛ لذلك كان ينظر إلى زوجته على أنها العقاب الذى فرضه عليه أبوه، وليست زوجة عليه أن يدللها ويرعاها.

وإنه على الرغم من أن الزوجة اليونانية قد منحت قدرًا من الحرية يفوق القدر الذى منحته الفتاة غير المتزوجة، فإنها كانت مع ذلك تلزم عقر دارها ولا تغادره إلا بإذنٍ من زوجها، وإذا سمح لها بالخروج فإنها تتحجب، ويصحبها أحد العبيد يخصصه زوجها لمرافقتها عند الخروج.

وفى الوقت الذى يكون فيه الزوج خارج المنزل يمارس أعماله، أو يمارس رياضته أو هواياته، تكون الزوجة قابعة فى منزلها لا عمل لها إلا الإشراف على الخدم وهم يدبرون شئون المنزل.

وجرت العادة بأن يتناول الزوج الطعام مع زوجته، أما إذا عاد إلى منزله وفى صحبته نفر من الأصدقاء، فمعنى ذلك أن تنسحب الزوجة إلى غرفة نومها وتترك زوجها وشأنه مع أصدقائه، حيث إن المرأة اليونانية «المحترمة» لا تفكر مطلقاً فى أن تشترك فى وليمة يقيمها زوجها لأحد من أصدقائه، بل هى لا تظهر على الإطلاق إذا ما عاد زوجها إلى المنزل وفى صحبته ضيف واحد، كما سبق أن ذكرنا.

وكان الزوج اليونانى كلما نمت ملكاته العقلية واتسعت مداركه الفكرية ازدادت الهوة بينه وبين زوجته التى كان تفكيرها لا يتعدى حدود شخصها وبيتها، فلم يكن فى استطاعتها مجاراة زوجها فى تفكيره وجدله، وكثيرًا ما كان ينتهى هذا الزواج بالانفصال بين الطرفين، حيث قد أصبح عادة مألوفة فى العهود التاريخية القديمة لليونان.

وكان حق الزوج اليونانى فى الطلاق يفوق الحق الممنوح للزوجة؛ إذ كان فى استطاعته أن يطرد زوجته من بيته بحضور بعض الشهود إذا لم ترق فى عينه، أو وجدها ثقيلة الظل غير جذابة... غير أن حق الطلاق هذا لم يكن مباحًا دون أى قيد أو شرط؛ ذلك لأن الرأى العام اليونانى كان لا يرتاح إلى فراق الزوج زوجته بالطلاق، يضاف إلى ذلك أن الزوج إذا طلق زوجته كان عليه أن يرد بائنتها إلى أبيها أو إلى وليها.

وكان للزوج مطلق الحرية فى تطليق زوجته فى إحدى الحالتين:

الأولى: إذا كانت زوجته عاقرًا.

الثانية: إذا ارتكبت عملاً فاحشاً كالزنى.

ولذلك كان بعض هؤلاء النسوة العاقرات يجلبن الأطفال المعرضين للعوامل الجوية القاسية بقصد إهلاكهم وينسبونهن إلى أنفسهن، وإلى أزواجهن ـ تفاديًا لعار العقم ومغبته المحتومة.

أما الزنى من جانب الزوجة فكان جريمة لا تغتفر يوقع عليها أشد العقاب، وكثيرًا ما كان الزوج يقتل غريمه إذا باغته فى حالة فسق مع زوجته، وقد يكون القتل أيضاً من نصيب الزوجة الزانية.. أما إذا كظم الزوج غيظه وأبقى على حياة الزوجة فإنه فى هذه الحالة يعاقبها عقاباً

جُسمانيا شديدًا، ويحتجزها فى البيت، ويضيق الخناق عليها، هذا إلى جانب ما يصيب سمعتها من عارٍ وخزى بين الناس، وحرمانها من حق الاشتراك فى الشعائر الدينية القومية، ومن تقديم القرابين إلى أرواح الموتى، بل ومن الدخول إلى المعابد.

وإذا حاولت هذه المرأة الزانية الاشتراك فى الحفل العام الذى يُقام عند تقديم القرابين للآلهة، فإنها تكون عرضة فى هذه الحالة لاعتداء الناس عليها وإذا شاع على الألسنة فسق إحدى الزوجات وتغاضى الزوج عنها، أو تستر عليها، فإن القانون ينص فى هذه الحالة على وجوب فسخ عقد الزواج.

والغريب أن الصلات الجنسية فى إسبرطة كانت طليقة من القيود المفروضة عليها فى «أثينا». مثال ذلك أن الإسبرطى إذا لم يكن له ولد، أو تقدمت به السن بدون أن يُعَقِّبَ، فإنه كثيرًا ما يشجع زوجته على أن تتصل بشاب قوى كى تنجب منه أبناء يكونون بمثابة أبناء له، بل إن المشرع اليونانى «ليكرغ» قد سمح للرجال بأن يشركوا معهم أفاضل الناس فى مهمة إنجاب الأولاد، وأن يسخروا من هؤلاء الذين يصرون على الاستئثار بالزوجة دون غيرهم!!.... والسبب فيما ذهب إليه المشرع اليونانى «ليكرغ» هو أنه كان يرى أن الأبناء ليسوا ملكاً لآبائهم وحدهم، ولكنهم ملك للدولة قبل كل شىء. والدولة الحربية يهمها أن يكون لديها العدد الوفير من الجنود الأقوياء المنحدرين من أُرومة قوية سليمة، بصرف النظر عن أى اعتبار آخر!!

ولم يكن للزوجة اليونانية إلا بعض الحق فى طلب الطلاق من زوجها، فالزوج إذا ارتكب جريمة الزنى، أو كان كثير التردد على بيوت الغانيات والعاهرات، فإن ذلك لا يعطى الزوجة الحق فى طلب الطلاق من زوجها... أما إذا أدى انغماس الزوج فى ملاذه وشهواته إلى إغفال شئون

بيته، أو كان يسىء معاملة زوجته، فإن للزوجة فى هذا الحال أن تطلب الطلاق، وأن تحصل عليه، ولكن بعد صعوبة كبيرة؛ إذ كان عليها أن تتقدم شخصيا إلى كبير قضاة المدينة، وكان فى استطاعة الزوج فى هذه الحالة منع زوجته من مغادرة المنزل، ولو أدى ذلك إلى استعمال القوة.

وإذا استطاعت الزوجة أن تحصل على الطلاق، فإنها تعود بعد طلاقها إلى أسرتها ضيفًا غير مرغوب فيه... وأن تخضع من جديد لسلطان أبيها أو أخيها.

وكان اليونانيون القدماء ينظرون إلى الطلاق على أنه من المسائل الخاصة التى لا تخضع لإشراف الدولة أو رجال الدين.

والواقع أن الدولة لم تكن تتدخل فى هذه المسألة، إلا إذا ارتكبت الزوجة جريمة الزنى ولم يطلقها زوجها، ففى هذه الحالة ينص القانون على فسخ رباط الزوجية، وتُفرق الدولة لذلك بين الزوج وزوجته الزانية.

* * *

*** نظام الزواج فى طروادة:**

كانت ـ العادة ـ تقضى بأن تذهب العروس إلى نهر «إسكاماندرا» وتستحم فيه، وتُردد الكلمات المقدسة التى يفرض العُرف تلاوتها فى مثل هذه الأحوال، وهى: «يا إسكاماندرا... خُذْ عُذريتى».

ونظرًا لما فى هذه العادة من سذاجة فإنه كان يحدث أن شابا من الخبثاء يأتى إلى مكان الاستحمام، ويختفى إلى أن تحضر العروس... وما إن يسمعها تطلب من «إسكاماندرا» أن يأخذ عذريتها حتى يتقدم فيغتصبها منفذًا بذلك ما طلبته بالضبط.

الغريب فى الأمر أن الفتيات اللائى مررن بهذه التجربة كن يعرفن أن الذى يأخذ عذريتهن ليس «إسكاماندرا» وإنما فتى من البشر!

فقد حدث ذات مرة أن اغتصب أحد الفتية عروسًا عند النهر أثناء استحمامها ودعوتها لإله النهر أن يأخذ عذريتها؛ وبعد أربعة أيام - وأثناء وجود العروس فى معبد «أفروديت» لإتمام احتفالات الزواج - لمحت الفتى الذى اغتصبها، فهتفت تشير إليه: ها هو «إسكاماندرا» الذى أعطيته عذريتى»(١).

* * *

* الزوجة اليونانية:

كانت المرأة اليونانية - زوجة المواطن الحر - لا تذهب بنفسها إلى السوق لتبتاع حوائجها، ولكنها كانت ترسل خدامها لهذا الغرض، وهذا دليل على الشعور بسمو مركزها. كما أنها كانت تحجم عن حضور الألعاب الأولمبية لا بسبب العرى الكامل الذى كان يبدو من جانب الرياضيين، إنما بسبب اختلاط الناس بعضهم ببعض فى هذه الاحتفالات، وما ينجم عن ذلك من شغب وعربدة.

على أن الأمور قد تغيرت بعد الحروب الطويلة التى اشتعل أوارها بين «أثينا» «وإسبرطة» إذ خرج الرجال إلى ساحات القتال تاركين وراءهم زوجاتهم بدون أنيس أو نصير. وقد ضجت بعض الزوجات بالشكوى والأنين، فى حين استسلمت بعضهن إلى الأمر الواقع... كما انفصمت عُرَا كثير من الزيجات، ونَسَبَ البعض هذا الفساد إلى المرأة، فى حين دافع البعض الآخر عنها وقال إذا كانت المرأة متهمة بأنها غير متزنة إبان المدة التى

(١) اغتصاب الإناث فى المجتمعات القديمة والمعاصرة: دكتور أحمد على المجدوب (بتصرف).

يقضيها زوجها فى القتال بعيداً عن بيته، فإن ذلك لا يعنى أنها فاسدة سيئة الخلق، إنما هو الجوع الجنسى، وعدم الاتزان النفسى هو الذى أدى بها إلى هذا القلق.

وكان صاحب هذه الدعوة الجديدة هو الحكيم «أبقراط» الذى كان أول من وصف مظاهر هذا القلق فقال: إن أهم أعضاء التناسل عند المرأة هو الرحم، فإذا لم يَتَنَدَّ هذا العضو بانتظام بماء التذكير[1] تحرك الدم إلى أعلى فيغيم على عقل المرأة، بل ويؤثر فى حركة تنفسها، ومن ثم كان قلق المرأة وحركاتها العصبية عبارة عن مرض الرحم، وهو نوع عن الهستيريا. وإن هذا المرض - على حد قوله - لو عولج فى وقته لأمكن شفاؤه بسهولة؛ ولذا يخلص «أبقراط» إلى أنه يجب أن تشبع المرأة غرائزها الجنسية العادية، وبذلك تنتظم دورتها الدموية!

وكانت العبارة التى تتردد على الألسنة فى ذلك الوقت: «دعها تتزوج، وعند ذلك يختفى المرض»... وقد ظلت هذه الوصفة الأبقراطية علاجاً لحالات الهستريا التى تبدو عند المرأة طوال ألفين من السنين أو يزيد[2].

*** الأب والزوج اليوناني:**

لقد تجمعت فى يد الأب اليونانى - بصفته رأس الأسرة - سلطات كثيرة فقد كان للأب فى الأسرة اليونانية قبل عهد صولون المشرع المشهور[3]، الحق فى بيع أبنائه وبناته. غير أن الأب اليونانى القديم ظل من حقه أن يقبل الطفل بعد ولادته بين أفراد الأسرة أو يحكم عليه بالهلاك، بتعريضه للعوامل

---

(١) يقصد نطفة الرجل.

(٢) تطور العلاقات الجنسية: أحمد الشنتناوى (بتصرف).

(٣) فقد نصت قوانين «صولون» على منع الوالد بيع ابنته أو أبنائه بوجه عام.

الجوية القاسية، وكان له الحق أيضًا فى تزويج أبنائه وبناته بدون موافقتهم على هذا الزواج، كما جرت العادة عند العبرانيين، وكان من حق الأب اليونانى أن يخرج ابنه من الأسرة ويحرمه من عبادتها المنزلية.

ويلاحظ أنه فى عهد «صولون» تحرر الابن من سلطان أبيه عند بلوغه.

أما بالنسبة لوضع الزوج اليونانى... فقد كان سلطانه على زوجته أقل وضوحاً وتحديدًا من سلطانه على أولاده، ولكن يمكن القول بأن مركز الزوجة داخل الأسرة كان أسْمَى بقليل من مركز الأبناء، وأدنى بكثير من مركز الزوج، فاليونانيون القدماء كانوا يعتبرون النساء فى درجة أدنى من الرجال(١).

ومن الملاحظ أن مركز المرأة فى «إسبرطة» كان أسمى من مركز المرأة فى «أثينا»، فقد كان الزوج فى «إسبرطة» يلقب زوجته بلقب «سيدة» وكان لها الحرية فى الخروج من المنزل وقتما تشاء، كما كان يسمح للبنات فى «إسبرطة» بقدر كبير من الحرية، الأمر الذى أدى إلى توجيه النقد إليهن من الولايات اليونانية الأخرى، فقد كان الشبان والفتيات يجتمعون معاً بحرية كاملة، كما كانوا يرقصون معًا فى مناسبات الأعياد القومية اليونانية المختلفة.

وكان للعادات الشرقية أَثَرٌ واضح فى الحد من حرية المرأة فى «أثينا».. وكان حظ المرأة اليونانية من التعليم والتهذيب ضئيلاً؛ لذلك لم يكن فى استطاعة الزوجة مجاراة زوجها المتعمق فى الفلسفة والفنون والآداب فى تفكيره وآرائه.

وكان يسمح للمرأة اليونانية أن تشترك مع باقى أفراد الأسرة فى إقامة الطقوس الدينية حول الموقد بالمنزل، إلا أنه لم يكن من الضرورى حضورها

(١) عن ذلك قال أرسطو: «الذكر بطبيعته أصلح من الأنثى للرياسة، كما أن المسن أسمى من الصغير وأكثر نضجًا.

إبان تقريب القرابين لأرواح السلف، ومن ثم لم تكن تقدم القرابين عند قبورهن بعد الوفاة.

كذلك لم تكن الزوجة حرة بعد أن تترمل، بل كانت تحت وصاية شخص يختاره زوجها لهذا الغرض... ولم يكن يصح لها قانوناً أن تصبح وصية على أولادها بعد وفاة أبيهم، بل كان هؤلاء الأولاد ينتقلون كأمهم إلى وصاية شخص يُخْتار لهذا الغرض.

أما النساء اليونانيات المولودات خارج اليونان، وكذلك الغانيات الموهوبات ـ فقد كان لهن مطلق الحرية فى التنقل من جهة إلى أخرى، كما كان لهن الحق فى الاشتراك فى المنتديات والمجتمعات التى يؤمها كبار القوم والفلاسفة وأهل العلم، وقد امتازت هذه الطائفة من النساء باطلاعهن الواسع، ومشاركتهن فى علوم كثيرة، بحيث كان فى استطاعتهن مناقشة ومساجلة الفلاسفة وأهل العلم فى أثينا وغيرها من المدن اليونانية الكبرى.

*** الغانيات الإغريقيات:**

كانت توجد طبقة من النساء الحسناوات تَمَرَّسْنَ منذ نعومة أظفارهن على حياة اللهو والفجور والخلاعة.

وكان بعض هؤلاء النسوة البائسات فى الأصل عبارة عن البنات اللواتى عرضهن آباؤهن بعد ولادتهن للعوامل الجوية القاسية بقصد إهلاكهن، فوقعن فى أيدى أشخاص لم يتورعن عن استغلالهن هذا الاستغلال المشين. وكان من بين هذه الطائفة قلة من النساء الأجنبيات امتزن بجمالهن الفاتن وبحدة ذكائهن وكفايتهن العقلية الممتازة[1].

(١) من هؤلاء «إسباشيا» عشيقة بركليس، ثم زوجته من بعد، وكانت من فلاسفة أثينا المشهورات.

وكان بعض هؤلاء الغانيات يحضرن دروس أفلاطون وأبيقور فى الفلسفة؛ ولذا فمن الغريب أن تكون غالبية نساء هذه الطائفة على حظ كبير من الثقافة والمعرفة، ولهن دراية فائقة بحياة المنتديات والصالونات الأدبية، وأن يوجد هؤلاء الغانيات بجانب الأديبات وكبار أهل الفكر والفن والبارزين فى المجتمع الإغريقى.

ومن الأمور الغريبة أن الإغريق من أهل أثينا قد أهملوا تماماً أهمية تثقيف نسائهم المحترمات اللواتى أظهرن سذاجة وقصورًا عقليا فى المناسبات التى اتفق فيها وجودهن مع أزواجهن المثقفين فى المجتمات والأندية. فى الوقت الذى اهتموا فيه بتثقيف هؤلاء الغانيات والسعى إلى الاجتماع بهن والتحدث إليهن.

والأغرب من ذلك أنه لم يكن هذا المسلك من جانب كبار الساسة وأهل العلم والفلسفة موضع انتقاد من جانب الرأى العام.

ولم يكن التسرى والدعارة بين الإغريق أمرًا مستهجنًا، ويُستدل على ذلك بما جاء فى إحدى خطب «ديموستين» خطبيب اليونان الأكبر:

«نحن نحتفظ بالعشيقات لمتعتنا، وبالمحظيات ليقمن على خدمتنا اليومية، أما الزوجات فلكى يَلِدْنَ لنا الأبناء الشرعيين، وليكن مدبرات أمينات لبيوتنا».

وكان رب الأسرة اليونانية يختار محظياته عادة من بين جوارى البيت.

• نظام الزواج فى روما القديمة :

كان الرومان القدماء ينظرون إلى الزواج على أساس أنه عمل مقدس على غاية من الأهمية، كما كانوا ينظرون إلى العزوبة نظرة استهجان واستنكار؛ لأن الأعزب لا يقدم بطبيعة الحال للدولة ذُرِّيَّة قوية تكون عضد الدولة وعدتها فى الحروب والأزمات.

وجرت العادة عند الرومان على عدم اعتبار الخطوبة ملزمة من الناحية القانونية للطرفين لتنفيذ ما اتفقا عليه. وقد كانت أول خطوة يتبعها الأب عند تزويج أولاده هى البحث عن زوج كفء لابنته، وعن زوجة صالحة لابنه، فإذا ما اتفق والد الشاب ووالد الفتاة على مقدار البائنة[1] التى يدفعها والد الفتاة. . . وكان فى استطاعة أى طرف من الطرفين فسخ هذا الاتفاق من بعد إبرامه؛ إذ لم يكن ملزماً لهما من الناحية القانوينة، وإن كان مثل هذا الفسخ موضع استنكار الرأى العام.

وكانت الخطيبة من ناحية أخرى ملزمة بالعفة والإخلاص لخطيبها، بحيث كانت تعاقب عقاب المرأة الزانية إن هى فسقت إبان فترة الخطوبة. وكانت حفلة الخطوبة عند سراة الرومان من الحفلات الفاخرة التى تقام فى بيت العروس بحضور جمع غفير من الأهل والأصدقاء.

---

(١) البائنة: المال يُخَصُّ به أحد الأبناء.

وكان الخاطب ووالد الخطيبة يتبادلان العبارات التالية، إذ يقول الخاطب: «هل تعدنى بأن تزوجنى.من ابنتك؟»... فيجيبه والد الخطيبة بقوله: «فلتبارك الآلهة ذلك، إنى أعدك بتزويجك منها»... وبذلك تصبح الفتاة خطيبة للشاب الذى خطبها من والدها، فيقدم لها الهديا الثمينة، كما يقدم لها «دبلة » تلبسها فى الأصبع الوسطى من يدها اليسرى... وبعد أن يقوم الخاطب بذلك يتقدم الحاضرون بتهنئة الخطيبين، ويقضى الجميع فترة سعيدة من الزمن وسط مظاهر الفرح والسرور.

وكان الزواج عند الرومان يتم وفقاً لصورة من هذه الصورة الثلاث:

الأولى: كانت تعرف باسم «اقتسام الدقيق».

الثانية: كانت تعرف باسم «الشراء».

والثالثة: وتعرف باسم «المتعة».

وكانت شعائر الزواج ـ وفقاً للصورة الأولى ـ تقام فى بيت العريس فى مساء اليوم الذى تُحَمل فيه العروس من بيت أبيها إلى بيت زوجها.

وكان موكب العروس عند الرومان أشبه بموكب العروس عند الإغريق، غير أن الزوجة الرومانية كانت تخرج إلى هذا الموكب ملثمة وتلبس تاجًا على رأسها، فى حين تتقدم الموكب شعلة الزواج، ويسير حول مركب العروس جماعة من المنشدين يرتلون بعض الأناشيد الدينية القديمة... وما إن تصل العروس إلى بيت عريسها حتى يتقدم نحوها عريسها الذى يمثل دور الاغتصاب، أى حملها قسرًا إلى داخل المنزل، بأن يرفعها بين ذراعيه ويحملها فوق عتبة الدار بدون أن تمسها قدماه... وبعد أن تستقر الزوجة داخل المنزل تتقدم نحو زوجها وتنطق بالعبارة التالية: «حيثما أنت السيد

أكون أنا السيدة»، وذلك تذكيراً له بمكانتها فى الأسرة.. أى أنها ربة الدار وسيدتها.

ثم تبدأ بعد ذلك شعيرة «اقتسام الدقيق»... إذ تتقدم الزوجة نحو موقد الأسرة هى وزوجها ويقدمان قرباناً للآلهة، ويريقان السوائل، ويتلوان بعض الأدعية، ثم يأكلان معاً كعكة مصنوعة من خالص الدقيق.

وجرت العادة على أن يشهد هذه الشعيرة كل من زعيم الكهنة، وكاهن الإلـه «چوبيتر»، وعشرة شهود آخرون.

ويقتسم الزوجان هذه الكعكة فيما بينهما وسط تلاوة الأدعية والصلوات، وعلى مشهد من الحاضرين، وهذا الأمر ينعقد بمقتضاه الرباط المقدس بين الزوج وزوجته.

ويجلس الزوجان طوال هذا الحفل على مقعد طرح عليه جلد الشاة التى قدمت قرباناً للآلهة فى هذه المناسبة دليلاً على أنهما قد ارتبطا معًا برباط واحد.

وينصرف المدعوون بعد أداء هذه الشعائر الدينية إلى وليمة شهية تحوى أطايب الأطعمة والأشربة... وبعد الانتهاء منها تذهب العروس يحف بها وصيفات الشرف إلى مخدع العرس الذى أقيم فى اليوم السابق على يوم الزفاف فى البهو الرئيسى للمنزل، وسط ترتيل الأناشيد وإنشاد المغنين، وبذلك ينتهى حفل الزواج على هذه الصورة.

وكانت الصورة الثانية من صور الزواج - وهى المعروفة باسم «الشراء» - تتم على نحو قريب جدا من صورة الزواج المتقدمة، ولكن كان يُستعاض عن

شعيرة الكعكة المصنوعة من خالص الدقيق بإجراء رمزى يمثل شراء الزوج لزَوْجه، إذْ يتقدم العريس إلى والد العروس أو وليها، وينقده قطعة من العملة ضئيلة القيمة رمزًا إلى شرائه لزوجته، وأنها بذلك قد انتقلت إلى سلطانه وأصبحت خاضعة له.

وكانت الصورة الثالثة من صور الزواج وهى المعروفة باسم «المتعة» كانت تتم بدون أى احتفال دينى، ولم يكن الأمر يتطلب فى هذه الصورة من صور الزواج إلاَّ موافقة الفتاة على الزواج، أو ضرورة ذهابها للعيش فى بيت زوجها... وكانت هذه الصورة من الزواج منتشرة إبان العهود الأولى من التاريخ الرومانى، إلا أنها كانت محصورة بصفة خاصة بين طبقة الدهماء، ولم تتسرب إلى طبقة الأشراف إلا فى عهد متأخر.

وكانت هناك عادة فى الزواج تعرف باسم «هدية الزواج»، وتقضى هذه العادة بأن يفرد الزوج جزءًا من ملكه الخاص لصالح زوجته فى حالة وفاته أو إذا طلقها بدون سبب مقبول. وإذا أفلس الزوج فإن هذا الجزء المخصص لزوجته لا يُستخدم فى تسديد ديونه.

وكان سلطان الزوج على زوجته يُعرف باسم «مانوس» Manus فالمرأة الرومانية عندما تتزوج تنتقل من سلطان أبيها إلى سلطان زوجها. ولم يكن يُتاح لها أن تقوم بأى عمل من الأعمال العامة، ولا أن تقوم بالشهادة، ولا أن توقع على وصية، ولا أن ترث أرضاً ولا عقارًا إلا من زوجها أو أخيها... على أنه كان لها ـ لقصر عقلها ـ أن تعفى من اتباع بعض القوانين إذا برهنت الظروف على جهلها بها.

وكان الزوج يستحوذ على بائنة زوجته بمجرد الزواج منها، وله الحق فى استغلال هذه البائنة وفقاً لما يراه.

وكان الزوج أيضا يتولى محاكمة زوجته إذا اقترفت بعض الجرائم الخطيرة، على أنه كان على الزوج فى هذه الحالة أن يعقد مجلساً يضم الذكور من أفراد أسرته وأسرة الزوجة للتشاور معًا فيما اقترفته الزوجة من جُرم قبل تنفيذ حكم الزوج عليها.

أما إذا اقترفت الزوجة جريمة الزنى فإن للزوج فى هذه الحالة أن يحكم عليها بالإعدام فورًا، دون حاجة إلى عقد هذا المجلس(١).

وكان من حق الزوج الرومانى تأديب زوجته جسديا لإصلاح ما أعوج من شأنها... وكان على الزوج من ناحية أخرى أن يدفع الغرامات التى قد توقع على زوجته لبعض الأخطاء التى قد ترتكبها، ولكنه كان من حقه أن يستوفى الغرامة من مالها الخاص، فإن لم يكن لها مثل هذا المال الخاص فله أن يبيعها شخصيا إيفاء لهذه الغرامات المحكوم بها عليها.

والحياة الزوجية عند الرومان قد فرضت على الزوجين أن يحترم كل منهما الآخر، فللزوجة حقوقها المعترف بها، إذ لها مكانها الخاص بجوار الموقد، وهى المكلفة بالسهر عليه حتى لا تخبو نيرانه... وكان عليها بصفة خاصة أن تحفظه من كل دنس، فتبقيه طاهرًا، وهى تتلو عنده الدعوات وتقدم له القرابين... وحيث لا توجد الزوجة تكون العبادة المنزلية ناقصة وغير وافية بالغرض، فكان حضور الزوجة عند تقديم القرابين أمرًا واجبًا، إلى حد أن الكاهن كان يفقد كهونته إذا ما أصبح أعْزَبَ.

ولم تكن الزوجة الرومانية محصورة بين جدران منزلها كما كان الحال بالنسبة للزوجة اليونانية، بل كان لها الحرية فى الخروج من منزلها عندما

(١) فى ذلك يقول الرقيب الرومانى «كاتو»: إن الزوج هو قاضى زوجته، عليه معاقبتها إذا اقترفت ذنباً، وإذا شربت الخمر حكم عليها، أما إذا ارتكبت جريمة الزنى فإنه يقتلها.

تشاء، وهى إذا خرجت إلى الطرقات ارتدت اللباس الخاص بالخروج الذى ينبئ عن مكانتها كزوجة وربة بيت. . . وكان الناس إذا رأوها فى الطرقات أوسعوا لها الطريق تحية منهم، واحترامًا للسيدة الرومانية[1].

والزوجة الرومانية تجلس مع زوجها على مائدة الطعام، وتشارك فى الولائم التى يقيمها زوجها لأصحابه وضيوفه على غير المعتاد بالنسبة للزوجة اليونانية.

كما كانت الزوجة الرومانية موضع التبجيل والاحترام، وفى الوقت ذاته خاضعة لسطان زوجها، وليس لها من الحقوق القانونية إلا الشىء القليل.

أمَّا بالنسبة للطلاق، فقد كان حق الطلاق فى يد الزوج الرومانى وحده، فقوانين اللوحات الاثنتا عشرة قد أقرت له هذا الحق، وإن كان الزوج قلما يلجأ إلى استعمال هذا الحق.

وكان الزواج الذى يتم وفقًا لشعيرة «اقتسام الدقيق» غير قابل للفسخ، إذ يكاد يكون الطلاق فى هذه الحالة مستحيلاً. فى حين كان القانون الرومانى يسمح بسهولة بحل الزواج الذى يتم وفقاً لشعيرة الشراء أو زواج المتعة. . . والسبب فى ذلك أن الزواج الذى يتم وفقًا لشعيرة «اقتسام الدقيق» هو زواج دينى لا يمكن حله إلا بإقامة حفل دينى جديد، إذ أن الدين وحده هو الذى يستطيع أن يفرق شمل ما جمعه الدين[2].

(١) ويظهر هذا جليا فى الصور والرسوم التى وصلت إلينا معبرة عن الحياة اليومية عند الرومان.

(٢) وذلك على الصورة التالية: يتقدم الزوج وزوجته التى يريد طلاقها نحو الموقد المقدس للمرة الأخيرة بحضور أحد الكهنة وبعض الشهود، ويقدم الكاهن للزوجين ـ كما حدث فى يوم الزفاف ـ كعكة من الدقيق الخالص فيدفعانها جانبًا بدل اقتسامها، ويتلوان خلال ذلك ـ بدل الصلوات والأدعية التى تتلى يوم الزفاف ـ صيغا أخرى غريبة الطابع، وقاسية، تنم عن البغض والكراهية، وهى نوع من الملاعنة تتنازل بها الزوجة عن عبادة الزوج وآلهته.

أما الأسباب التى تبيح للزوج تطليق زوجته فهى ارتكابها جريمة الزنى أو شربها الخمر، أو دس السم له.

وكانت صيغة الطلاق عند الرومان كما وردت فى قوانين اللوحات الاثنتى عشرة هى: «خذى متاعك لنفسك»... ويأمرها الزوج بعد ذلك بمغادرة المنزل.

وعلى الرغم من أن الطلاق كان فى يد الزوج وحده، فإن الزوج الذى كان لا يحسن استخدام هذا الحق كان يجلب على نفسه سخط الرأى العام، وتأنيب الرقيب؛ ولذا كان الطلاق نادر الحدوث فى روما القديمة.

... وإذا حدث أن طلق الزوج زوجته لسبب من الأسباب فإن الدولة لا تتدخل فى ذلك إلا عن طريق الرقيب الذى يقوم بتأنيب الزوج على فعلته، خصوصًا إذا كان الطلاق لغير سبب من الأسباب التى يقرها القانون

* * *

• نظام الزواج عند قدماء المصريين:

كانت العلاقة بين الزوج وزوجته على أفضل ما يكون من المودة والإخلاص والصفاء، فالزوجة مخلصة لزوجها، وفيَّة له، والزوج من ناحيته حريص كل الحرص على إرضاء زوجته وإسعادها.

وإذا أراد المصرى القديم ـ خاصة إذا كان من أثرياء القوم والبارزين منهم ـ أن يصنع لنفسه تمثالا، فإنه لا بد أن يكون لزوجته مكان إلى جانبه، إذْ لا يهنأ له بال إلا إذا شاركته زوجته فى كل كبيرة وصغيرة.

وكانت المرأة المصرية تشارك زوجها وتساعده فى تدبير شئون حياته، وكانت تصاحبه فى رحلاته لصيد الطير والإوز من المستنقعات والمجارى المائية والقنوات.. ويتجلى ذلك فى النقوش التى على الآثار التى خلفها قدماء المصريين، والتى فيها مديح للزوجة التى يبجلها زوجها.

وكان الرجل لا يعد حكيمًا فى نظر الناس إلا إذا تزوج، وكانت له زوجة تبادله حُبا بحب، وعلى ذلك لم تكن العزوبة من الأمور التى يرتاح إليها المجتمع فى مصر القديمة[1].

(١) فلقد جاء فى الكتاب الذى ألفه الوزير الحكيم بتاح حتب: «إن الرجل يكون حكيمًا عندما يؤسس لنفسه منزلا ويحب زوجته».

وكان بقاء الرجل أعْزَبَ يُعَد أمرًا نادرًا، ولا سيما بين أهل الطبقات الراقية فى المجتمع.

وكان الزواج فى مصر القديمة يسير على نظام مكوث الزوج فى بيت الزوجة، فالرجل إذا ما تزوج ذهب إلى بيت زوجته أو أسرتها للعيش إلى جانبها، وإذا تزوج الرجل بزوجتين فإن كُلا منهما تمكث فى بيتها الخاص، ويزورهما الزوج بالتناوب.

وكانت الفكرة السائدة حتى عهد الأسرة التاسعة عشرة أن الزوج ما هو إلا ضيف على بيت زوجته، أو على بيت أسرتها. . . وبالتالى كان كل متاع البيت ملكاً للزوجة(١).

والأكثر من ذلك أنه إذا بنى الزوج منزلاً، أو اشترى بيتاً، فإن ملكيته تنتقل مباشرة إلى الزوجة، ثم يرد إلى أبنائها بمطلق حريتها إذا أرادت . . . وكانت النساء ـ سواء المتزوجات أو غير المتزوجات ـ هن اللواتى يُدِرْنَ أملاكهن بأنفسهن، ولم يكن الزوج يستشار فى شىء من ذلك، وكان يعد كل تدخل من جانبه فى هذه الشئون عيبًا وتدخلاً غير شرعى

وكان الزواج فى مصر القديمة يسير على نظام تعدد الزوجات، ولا سيما بين أهل الطبقة العليا، وعند الفراعنة بصفة خاصة(٢). أما الرجل من سواد الشعب فكان يكتفى بزوجة واحدة.

(١) عادات الزواج وشعائره: أحمد الشنتناوى (بتصرف).

(٢) تعدد الزوجات كان أمرًا شائعاً عند الفراعنة، فرمسيس الثانى كانت له زوجتان، وعندما عقد الصلح مع ملك الحيثيين تزوج من ابنة هذا الملك فكانت زوجته الثالثة، وكان مثل هذا الزواج يرجع فى الغالب إلى أسباب سياسية، إذ كثيرًا ما كان الملك يلجأ فى مصر القديمة إلى الزواج من بنات الملوك المجاورين توثيقاً لِعُرَا الصداقة بين مصر وجاراتها. وهكذا فعل تحتمس الرابع، وأمنوفيس الثالث والرابع، عندما اتخذوا لأسباب سياسية أميرات من بلاد =

وقد جرت العادة أن يكون للرجل زوجة واحدة شرعية، هى ربة البيت، غير أن الرجل كان فى الوقت ذاته حُرا فى اتخاذ الجوارى والمحظيات بقدر ما تسمح به ثروته.

وكان من الطبيعى أن تكون خادمات المنزل إماء الرجل وملك يمينه، ولا يُعد ذلك من فساد الأخلاق!

وكان المصريون القدماء يزوجون بناتهم فى سن مبكرة، قد تصل إلى سن اثنى عشر عاما ونصف العام، كما جرت العادة أيضاً أن يتزوج الشاب وهو فى عنفوان شبابه كى ينجب، إذ كان إنجاب الأبناء فى مصر القديمة مصدر سعادة كبيرة للزوجين؛ ولذا كان الشاب يتزوج عادة فى سن الخامسة عشرة.

وكان والد الفتاة هو فى العادة وليها، يقدمها للخاطب الشاب كى يتخذها زوجة له تشاركه فى هموم الحياة ومسراتها.

وكان الزواج يتم على وثيقة مكتوبة يقوم بكتابتها كاتب قانونى، وينص فيها على الشروط التى اتفق عليها الطرفان المتعاقدان.

وكانت المرأة فى هذه العقود هى الطرف المتعاقد الوحيد، فهى التى تملى شروطها على الرجل، وهى المرجع الأخير فى أمر الزواج.

وأهم «بند» فى عقد الزواج كان يجرى على هذا النحو:

«إذا تركتُكَ بصفتك زوجًا لى بسبب كراهيتى لك، أو لأنى أحببت رجلاً آخر غيرك، فإنى سوف أعطيك مثقالين ونصف مثقال من الفضة، وأرد إليك المعيارين ونصف المعيار من الفضة التى أعطيتنى إياها كهدية عرس».

بابل وغيرها، وجعلوهن زوجات ملكيات عظيمات... وقد انتقلت هذه العادة ـ عادة الزواج بأكثر من زوجة ـ من الملوك إلى أفراد الشعب، فالناس على دين ملوكهم كما يقولون.

وكان فى استطاعة الزوجة أن تطلق زوجها وقتما تشاء بدون إبداء السبب أو الدافع لها على ذلك.

وكان المفروض أن للزوجة وحدها الحق فى الطلاق، وليس للرجل أى حق فى ذلك، على أنه كان ينص فى بعض الأحيان فى وثيقة الزواج على أنه ليس للزوج الحق فى طلب الطلاق(١).

وكان الزوج يدفع إلى زوجته ـ إلى جانب هدية العرس ـ قدرًا من المال كل سنة، وبعض الهدايا والحلوى الأخرى.

وكان للزوجة الحق فى رهن ثلث أملاك زوجها، ثم اتسع هذا الحق تدريجاً حتى شمل كل أملاك الزوج تقريبًا.

وكانت المرأة أحيانًا ـ وخاصة فى طيبة ـ تستغل مركزها، فتنص فى عقد الزواج على أن لها الحق فى تملك جميع ما للزوج من منقولات وعقارات... وكان تجريد الزوج من ممتلكاته على يد زوجته يتم عادة شيئاً فشيئا، وفى بعض الأحيان يتم دفعة واحدة على شكل بيع أو تصفية عامة لممتلكات الزوج.

ولما كانت الزوجة لها الحق فى الاستيلاء على جميع أملاك زوجها وكل دخله وكسبه من العمل، كان مهددًا فى الواقع بالهلاك جوعًا؛ لذلك كان الزوج ـ فى بعض الأحيان ـ يطلب أن ينص فى وثيقة الزواج أن تقوم الزوجة بإعالته مدة حياته، وأن تدفع مصاريف جنازته ودفنه(٢).

ويرجع السبب فى رغبة الأزواج واستعدادهم للتنازل عن طيب خاطر عن جميع ممتلكاتهم لزوجاتهم إلى توريث أملاكهم إلى أولادهم؛ لأن الرجل ـ

(١) فقد جاء فى أحد عقود الزواج هذه الفقرة «إنَّكِ وَحْدَكِ لكِ الحرية فى فسخ الزواج».
(٢) المرجع السابق (بتصرف).

وفقاً لنظام الأسرة الأمى[1] ـ كان لا يرثه أبناؤه، إنما يرثه أبناء أخته، فهو بتنازله عن أملاكه لزوجته يضمن توريثها إلى أولاده[2].

وكانت الرغبة فى توريث الذكور ـ على الرغم من النظام الأمى ـ هى السبب فى زواج الأخ بأخته. وكانت هذه العادة من الشيوع بحيث كان الزواج بين الإخوة والأخوات يؤلف فى بعض نواحى البلاد المصرية القديمة الغالبية الكبرى من حالات الزواج. وكان هذا النوع من الزواج بالأخت منتشراً على الأخص فى أسرة الملك. الأمر الذى يدعو إلى القول بأن فكرة الاحتفاظ بالدم الملكى ـ أو ما يسمى بنقاء الدم الإلـهى الذى يجرى فى عروق الأسرة المالكة ـ كان لها تأثير كبير فى انتشار هذه العادة، ولا سيما بين الأسرة المالكة.

. . . ففى الأسرة الثامنة عشرة كانت «أهموسى نفرت أرى» زوجة لأخيها «أحموس». . كما تزوج «تحتمس الأول» أخته «أحموسى». . كما تزوج «تحتمس الرابع» من أخته «آرات». وهكذا.

ومن العادات المأثورة عن قدماء المصريين اهتمامهم بالنصائح التى تؤدى إلى السعادة الزوجية. من ذلك ما ورد عن الحكيم «بتاح حتب»[3]:

«إذا كنت حكيمًا فاحرص على بيتك، وأحب زوجتك، ولا تتشاجر وإياها، أطْعِمْهَا واكسها، وضمخها بالزيت، لاطِفها وحقق جميع رغباتها

---

(١) كان المجتمع المصرى القديم يمتاز بنظام أمى ملحوظ، فالملكية كانت تنتقل عن طريق الأرحام.

(٢) قد اطلعنا على قصيدة غرامية من عهد رمسيس الثانى مهداة ـ كما هى العادة ـ من امرأة إلى حبيبها جاء فيها: «يا صديقى الجميل، إن مُنَاى أن أصبح المتصرفة فى كل ممتلكاتك بصفتى زوجتك».

(٣) هو أقدم كاتب فى العالم؛ إذ يرجع تاريخه إلى عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد.

طيلة حياتك؛ لأنها متاع لك، وملك لك يجر عليك خيرًا كثيرًا.

اعرف ما تريده وما يهواه قلبها؛ فإنك بهذا تحثها على الاستمرار فى العيش معك، أمّا إذا عارضتها فذلك معناه هلاكك»[1].

كما ورد فى عقد زواج آخر ما يلى:

«إنى أعترف بحقوق الزوجة عَلَىَّ، فإننى من اليوم لن أعارض طلباتك ورغباتك، وسوف أعترف بك زوجة لى أمام كل الناس، ولكن ليس لى من القدرة بحيث أقول لك: «أنت زوجتى» بل أنا هو الرجل الذى هو زوجك: إنه منذ اليوم الأول الذى أصبحت فيه زوجًا لكِ لا أستطيع أن أمنعك عن أى مكان يلذ لك الذهاب إليه، إنى أتنازل لكِ عن جميع ما أملكه فى المنزل، وليس فى مقدورى أن أتدخل فى أية صفقة تقومين بها منذ هذا اليوم، وأذ كل اتفاق بينى وبين أى شخص آخر لصالحى هو الآن بين وثائقك الخاصة، وهو تحت تصرف أبيك أو أى قريب من أقربائك، وإذا أعطانى أحد أى مبلغ من المال فإنى سوف أسلمك إيَّاه بدون تأخير، وبدون أية معارضة، وسأدفع لكِ ـ بالإضافة إليه ـ عشرين وزناً من الفضة»[2].

ومما يلاحظ أيضاً أن النصائح لم تقتصر على الزوج والزوجة فحسب، وإنما وجهت إلى كثير من فئات المجتمع، ومن تلك التى تتناول علاقة الابن بأمه. من ذلك ما قاله الحكيم المصرى القديم «آنى»:

---

(١) لقد أوردنا ذلك لما يتضمنه من معانٍ رقيقة عذبة للغاية، تعرف طريقها إلى وجدان المرأة التى تنفعل وتنصهر مع من يشعر بها ويحبها.

(٢) كما نجد فى تلك الفقرة كيف كانت علاقة الزوج بزوجته مبنية على الحب والإيثار، مما تستغرب له عقلية الأزواج والزوجات الآن.

«يجب عليك ألا تنسَى أمك، وكل ما صنعته من أجلك، فإذا نسيتها فإنها تستطيع أن تلومك، وترفع أذرعها إلى الله فيستجيب إلى دعائها. . . الخ».

وكان الابن فى مصر القديمة يكن لأمه أعظم الاحترام والتقدير؛ لذلك يوجد فى كثير من نقوش مقابر الدولة القديمة أم المتوفى ممثلة فى العادة إلى جانب زوجته، فى حين تهمل صورة والده فى أغلب الأحيان. كما كان النسب ينحدر عن طريق الأم وليس عن طريق الأب، كما جرت العادة أن يذكر على شواهد المقابر نسب المتوفى من جهة أمه، بصرف النظر عن اسم الأب.

وكانت تربية الطفل وتهذيبه تقع عادة على عاتق جده لأمه، وكان والد الأم لا يزال يُعَدُّ فى عصر الأسرة التاسعة عشرة الوصى على الشاب الناشئ، فإذا ما تهيأت لهذه الشاب وظيفة حكومية حسنة كان جده هذا أشد فرحًا بذلك.

ولما كان النسب فى مصر القديمة ينحدر عن طريق الأم ـ لم يكن هناك أبناء يمكن أن نطلق عليهم «أبناء حرام» أو أبناء غير شرعيين. لقد كان أبو الأم أهم بكثير من والد الشخص ذاته.

والزوجة كانت أهم فرد فى الأسرة، وكانت تمثل ـ فى آثار الدولة القديمة ـ وهى جالسة على نفس المقعد الذى يجلس عليه الزوج ويدها على كتفه، رمزًا للحيازة والمِلْك[1].

(١) كانت المرأة تصور فى الفن المصرى القديم بحجم أصغر من زوجها. . وهذا لا يؤكد أنها كانت أقل قيمة وشأناً، وإنما هذا التصور كان مرجعه لأسباب فنية بحتة، والدليل على ذلك أننا نجد فى رسوم مقابر الأسرتين الرابعة والخامسة أن الزوجة تجلس إلى جانب زوجها بنفس=

وكان يُنقش فى قبر الزوج صورة زوجته أو زوجاته، فى حين لم يكن يحوى قبر الزوجة نقشًا أو تمثالاً لزوجها!

* * *

* الحث علي الزواج عند المصريين القدماء:

كان الزواج عند المصريين القدماء ضرورة قصوى، ليس للحب والمتعة الجنسية فحسب، بل للولد، لما يكفله من استبقاء الذِّكْرِ بعد الموت؛ ولذا كان الحث على الزواج، والتبكير به قبل أن يولى الشباب، لضمان إمكانية الإنجاب، ويتبين ذلك من الوصايا التى خلفها لنا المصريون القدماء(١).

وقد بلغ من حرص المجتمع المصرى القديم على التشجيع والحث على الزواج، والتكثير من عدد المتزوجين، أن كان السادة الإقطاعيون يجدون من

= الحجم، فى حين يرسمون الخدم والأطفال بحجم أصغر، وكان الأطفال يجلسون بجانب الأبوين، حيث يقبضون على عصا الأب، أو يجلسون القرفصاء على الأرض إلى جانب مقعد الأم.

(١) أقدم ما انحدر إلينا من هذه الوصايا يرجع إلى عهد بُناة الأهرام، مثل هذه الوصية:

«إذا كنت قادرًا على الباءة ـ نفقات الزواج ـ فاتخذ لك دارًا مستقلة، واختر لك زوجة تحبك حتى ترزق منها بالولد»...

وبعد ذلك بألفى سنة قال الحكيم «آنى» فى مجموعة نصائحه لتلميذه «خونسوهتب» وهى تقع فى تسع صفحات باللغة الهيراطيقية: «إذا بلغت العشرين، فقد حق عليك الزواج حتى ترزق بطفل وأنت لا تزال فى ريعان العمر وعنفوانه، وفى ذلك مدعاة لاحترامك وإجلالك، وبرهان على صلاحك وتقواك»...

وتأتى بعد ذلك بطبيعة الحال وصية للفتى المتزوج: «إذا كانت زوجتك كاملة مدبرة، فلا تعاملها بالخشونة والغلظة، وراقب أطوارها لتكتشف أحوالها، ولا تتسرع معها فى الغضب =

واجبهم أن يقدموا للعزاب من موظفيهم زوجات من صغار الفتيات العاملات فى دورهم.

كما كانت الملكات أنفسهن إذا أَرَدْنَ إظهار رضاهن وعطفهن على تابع من الأتباع أعزب زَوَّجْنَهُ واحدة من وصيفاتهن... فإن هى توفيت زَوَّجْنَهُ بأخرى.. وتكون الزوجة الوصيفة فى الحالتين محملة بالهدايا، فضلاً عن الصداق السخى.

وكانت مراسم عقد إتمام الزواج تجرى فى المعبد، وذلك بحضور أقرباء الزوجين، واصطبغ الزواج بالصبغة الدينية، إذ كانت مراسمه تتم عن طريق كاهن «آمون» مما أَضْفَى عليه نوعاً من القدسية.

وكان عقد القران يشهده الشهود من الأقارب والأصدقاء والمعارف. ويقسم الزوج خلال العقد على تعهداته بأسماء أبابه واسم فرعون. وينص كتابة على قيمة الصداق من أوزان الفضة ومكاييل الغلال، فضلاً عن مؤخر يدفعه إذا نشب بينه وبين زوجته ما يدعو إلى الانفصال، كما سنعرض فى موضع آخر.

* * *

*** الاحتفاظ بالدم الملكى:**

فى مصر القديمة... كان يباح للملك أن يتزوج أخته، كما كان له أحيانًا أن يتزوج ابنته، وذلك للاحتفاظ بالدم الملكى خالصًا نقيا من الشوائب..

= لئلا تزرع شجرة الشقاق والنزاع فى بيتك، فتكون ثمرتها التنغيص، فإن كثيرًا من الناس يصنعون أساس الخراب فى بيوتهم بجهلهم حقوق المرأة».

وكان الحكيم المصرى القديم «بتاح حتب» يقول: «إن الرجل يكون حكيمًا عندما يؤسس لنفسه منزلاً ويحب زوجته».

وقد انتقلت هذه العادة بعد ذلك إلى عامة الشعب، وأضحى الزواج بالأخت مألوفًا حتى بعد انتشار المسيحية.

وحينما أنشأ البطالمة دولتهم فى مصر ـ فى القرن الرابع قبل الميلاد ـ شجع ملوكهم هذه العادة بما فعلوه أنفسهم من الزواج بأخواتهم، ولم يقض عليها إلا فى منتصف القرن الخامس بعد الميلاد[1].

كذلك كان يباح لملوك فارس الزواج من بناتهم وأخواتهم للاحتفاظ بصفاء الدم الملكى، وجاراهم فى ذلك كبراء قومهم. ثم شاعت هذه العادة عند عامة الشعب حين دعا «مزدك» إلى شيوعية النساء والمال، فانتشرت الإباحة والزندقة، وكانت سبباً فى انهيار المجتمع الفارسى.

وتسربت عادة الزواج بالبنات مع المجوسية إلى بعض القبائل العربية المجاورة لبلاد فارس كقبيلة تميم، ولكن لما ظهر الإسلام قضى على هذه العادة، كما قضى على غيرها من العادات التى تخالف مبادئه وتعاليمه[2].

* * *

(١) مصر: اتيان دوريوتون وچاك فانديه ترجمة عمر بيومى (بتصرف).

(٢) الزواج عند العرب فى الجاهلية والإسلام، للدكتور عبد السلام الترمانينى. (بتصرف).

obeikandl.com

• الأسرة العبرية:

كانت المرأة الإسرائيلية طوال حياتها تحت سيطرة أحد الذكور من ذوى قرباها، فهى إما تحت سلطان أبيها، أو أخيها الأكبر، أو زوجها، أو حَميها، ولم تكن تستمتع بقسط من الحرية والاستقلال إلا الأرملة التى تعيش فى بيت ابنها بعد موت زوجها، وكان عميد الأسرة يعامل أمه وحدها من دون أفراد البيت معاملة تنطوى على الاحترام والطاعة، أما زوجاته ومحظياته فكان ينظر إليهن فى العادة كما ينظر إلى متاع البيت. وكان الأبناء العبرانيون يخضعون لسطان أبيهم المطلق، غير أن سلطان الأب على بناته قد حدد من ناحتيين:

الأولى: ألا يعرض ابنته للزنى: «لا تدنس ابنتك بتعريضها للزنى؛ لئلا تزنى فى الأرض وتمتلئ الأرض رذيلة»(١).

الثانية: ألا يبيعها للغرباء «وليس له سلطان أن يبيعها لقوم أجانب»(٢).

وكان للأب ـ داخل هذه الحدود ـ مطلق الحرية فى تزويج أبنائه حسبما يتراءى له، أو أن يبيعهم بيع العبيد لواحد من مواطنيه.

---

(١) سفر اللاويين: الإصحاح ١٩، النص ٢٩.

(٢) سفر الخروج: الإصحاح ٢١، النص ٩.

وقد فُرضت عقوبة الإعدام على الولد الذى يضرب أباه أو يسبه: «ومن ضرب أباه أو أمهُ يُقتل قتلاً، ومن شتم أباه أو أمه يقتل قتلاً»(١).

وإذا كان لرجل ابن معاند متمرد لا يسمع لقول أبيه ولا لقول أمه، ويؤدبانه فلا يسمع لهما، يمسكه أبوه وأمه ويأتيان به إلى شيوخ مدينته، ويقولان لهم: «ابننا هذا معاند متمرد ولا يسمع لقولنا، وهو مسرف وسكير، فيرجمه جميع رجال مدينته بحجارة حتى يموت»(٢).

وكانت الدار اليهودية تضم أيضًا الأرقاء وغيرهم من الأجانب الذين يخضعون بدورهم لسلطان عميد الأسرة طيلة وجودهم بين أفراد أسرته.

والغريب أن العبد اليهودى لم يكن حاله فى الأسرة اليهودية محفوفاً دائماً بالأشواك والمتاعب، إذْ كثيرا ما تصبح الجارية اليهودية محظية أثيرة عند رب الأسرة، أو يصبح العبد زوجًا لابنة سيده. ونصت شريعتهم على وجوب تحرير العبد فى خلال سبع سنوات، ومن ثم كانت علاقة العبد الذى يُولد فى الأسرة بسيده أكثر توطدًا وقربًا من العبد الذى يُولد خارج الأسرة.

كانت الأسرة اليهودية ـ إلى جانب وظائفها المعهودة ـ عبارة عن نظام دينى متماسك على جانب كبير من الأهمية، فرب الأسرة كان يقوم بدور الكاهن فى الاحتفالات المختلفة التى كانت تقام فى المناسبات الدينية المتعددة، وكانت

---

(١) سفر التكوين: الإصحاح ١٥، النص ٣.

(٢) سفر التثنية: الإصحاح ٢١، النص ١٨: ٢١.

ويتضح من هذا النص أن الأب لم يكن هو الذى يقوم بنفسه بتنفيذ عقوبة الإعدام التى نصت عليها الشريعة الموسوية فى حالة الابن العاق، إنما كان ذلك موكولا إلى شيوخ القبيلة أو العشيرة.

الأسرة من ناحيتها تحافظ محافظة شديدة على الشعائر الدينية المعقدة، تلك الشعائر التى كانت تدعم وحدة الأسرة وتماسكها.

وكان فى كل بيت يهودى عدد من الأصنام هى محل عبادة الأسرة وتقديسها، يُضاف إلى ذلك أن المقبرة اليهودية كان يقدسها كل إسرائيلى، كما كان الحال عند الإغريق والرومان، وهما من الشعوب التى كانت تدين بعبادة الأسلاف.

وقد كان لكل جماعة يهودية إلـه خاص بها، وتؤدى شعائرها الدينية وطقوسها الخاصة المتصلة بعبادة الأسلاف، ثم حدث بعد ذلك أن توحدت هذه القبائل فى أمة واحدة عبدت إلـهاً واحدًا هو يهوذا!!

* * *

*** عادة الزواج بالميراث:**

ظهرت عند العبرانيين عادة الزواج بالميراث... فإذا مات الرجل ورث أخوه أرملته، فإن لم يكن للزوج أخ ورثها أقرب الرجال إليه، ويصبح البكر من الأبناء الذين يولدون نتيجة لهذه الزواج وريثا للزوج الإسرائيلى المتوفى، ويُعَدُّ كابن له.

وقد يرفض الرجل أحياناً أن يتزوج من زوجة أخيه، فتفزع الزوجة فى هذه الحالة إلى شيوخ المدينة، وتعلن أمامهم أن شقيق زوجها يرفض أن يقيم لشقيقه اسماً فى إسرائيل، وأنه لم يقم لها بواجب أخ الزوج، وعند ذلك تتقدم أمام أعين الشيوخ وتخلع نعله من قدمه وتبصق فى وجهه وتقول: «هكذا يفعل بالرجل الذى لا يبنى بيت أخيه».. فيدعى اسمه فى إسرائيل بيت مخلوع النعل. وكانت تعرف هذه العادة عند الإسرائليين باسم «شالتزة». والظاهر أن عادة الزواج بالميراث تخالف صراحة الشريعة لموسوية:

«عورة امرأة أخيك لا تكشف، إنها عورة أخيك»(١).

هذا، ويمكن تفسير عادة الزواج بالميراث بين الإسرائليين بأنها بقية باقية من عادة البدائيين فى اعتبار المرأة متاعاً من المتاع، تورث هى والأبناء والعبيد إلى أقرب قريب لزوجها بعد وفاته..

وهذه العادة قد زالت تمامًا عند بنى إسرائيل فى زمن المسيح عليه السلام.

*** تعدد الزوجات:**

سارت الأسرة العبرية على نظام تعدد الزوجات، فقد كان الرجل يتزوج بأكثر من زوجة، وقد أقرت الشريعة الموسوية هذه العادة، وإن كانت قد بذلت بعض المحاولات للحد من عدد الزوجات اللاتى يكن فى عصمة الرجل. وكثيرًا ما كان الرجل يتخذ من جاريته محظية له...

وظهرت بين العبرانيين فى العهد القديم عادة غريبة مؤداها أن كانت الزوجة فى بعض الأحيان تسمح لزوجها بمعاشرة جواريها معاشرة الزوجات على أن يلحق بها الأبناء الذين يولدون نتيجة لهذه المعاشرة، وكانت هذه العادة شائعة بين كثير من الجماعات، ولا سيما بين أهل إسبرطة القدماء.. ومن أمثلة ذلك عند العبرانيين ما صنعته «راحيل» زوج يعقوب مع جاريتها «بلها» و «لئية» زوج يعقوب مع جاريتها «زلفة»... ولم تكن الزوجات الشرعيات يمتزن كثيرًا عن المحظيات، إلا أن نصيب أبناء الزوجات من ميراث أبيهم كان أكبر من نصيب أبناء المخطيات(٢).

* * *

(١) سفر اللاويين: الإصحاح ١٨، النص ٧: ١٠.

وذهب البعض فى تفسير هذا التناقض بين ما جاء فى سفر التثنية وما جاء فى سفر اللاويين أن زواج الميراث كما فى سفر التثينة كان يقصد به حالة خاصة، وهى إذا مات الرجل دون أن يعقب ولدًا ويخشى على أسرته من الانقراض بعد وفاته.

(٢) عادات الزواج وشعائره: أحمد الشنتناوى (بتصرف).